

6- عش اللحظة التي أنت فيها

أحب الحياة وعِشها بالكامل

استمتع باللحظة

تأمل في حياتك

اجعل لكل ثانية أهميتها

إياك أن يساورك الندم

في عام 1997، كنت في سباق حول العالم في منطاد يعمل بالهواء الساخن. وقبل مغادرتي، كتبت رسالة مطولة لولدي في حالة عدم عودتي. بدأت رسالتي بالقول: «عزيزي هوللي وسام، يمكن أن تبدو الحياة غير واقعية نوعاً ما أحياناً، أو في يوم ما يكون المرء حياً وبصحة جيدة ومحبباً، وفي يوم آخر لا يعود له وجود. كما تعلمان، كان لدي الدافع دائماً لأن أحيى الحياة بكاملها...».

كتبت الرسالة فقط في حالة حدث الأسوأ. لقد انطلقنا عند الفجر من مدينة مراكش في المغرب. وبعد اثنتي عشرة ساعة، كنا كما يبدو على وشك أن نتحطم في أسنة اللهب في جبال أطلس. يقولون إن رجلاً على وشك الموت يعيش حياته مرة أخرى في الثواني الأخيرة. بالنسبة لي، لم يكن هذا صحيحاً. كل ما فكرت فيه هو أنه إذا نجوت بحياتي، فلن أفعل هذا مرة أخرى. لقد قاومنا بقوة طوال الليل لتبقي المنطاد في الهواء. وبحلول الفجر، كنا فوق الصحراء حيث أمكننا الهبوط بأمان.

وإذ كنا نتحدر نحو الأرض، جلست على السقف الزجاجي للكبسولة، أتأمل جمال الفجر الذهبي وهو يبرزغ فوق الصحراء، كان هذا يوماً لم أعتقد أبداً أنني سأراه، وبدت الشمس المشرقة والدفع المتزايد لذلك اليوم نفيسين جداً، مما جعلني أدرك أن الأشياء المكتسبة بالكد وعرق الجبين أغلى من تلك التي تأتي بمنتهى السهولة. وذكرتني بأن أستمتع باللحظة على الدوام.

أعشق المناطيد لدرجة أنني أمتلك واحداً منها. إنه منطاد صغير مع سلة من خيزران مجدول، مثل الذي في فيلم حول العالم في ثمانين يوماً. غالباً ما أصطحب عائلتي وأصدقائي ونقوم بجولة داخله في الفضاء الذي هو أهدأ الأماكن التي أعرفها. إنه يجعلني أشعر بأنني في مكان مع الطبيعة إذ إنك تتحدر بهدوء وما من أحد يمكنه أن يهتف لك أو يوقفك. إذن أنت حر. تنظر إلى الأسفل إلى المدن والحقول والناس الذين لا يعرفون أنك هناك. يمكنك أن تحلق قرب بجة برية وتسمع رفرقة جناحها. يمكنك النظر في عيني نسر.

علمتني المناطيد أن أتأمل أكثر. على الأرض، حياتي سريعة وحافلة بالمشاغل، وكل لحظة مليئة. يمكن أن تكون حياتي في شغل دائماً. جميعاً بحاجة إلى فضائنا، ومن المفيد التوقف وعدم فعل أي شيء؛ إذ يوفر ذلك لنا وقتاً للتفكير، ويعيد شحن أجسامنا إضافة إلى أذهاننا. غالباً ما أفكر في صيادي الأسماك الذين راقبتهم في أحد أعياد الميلاد في اليابان. إن من طبيعتنا أن نسعى جاهدين، لذلك أتساءل: عم كانوا يبحثون في الحياة؟ بدوا راضين بصيد الأسماك وإطعام عائلاتهم. لم يكونوا مندفعين كما يبدو

لتأسيس إمبراطوريات لتعليب الأسماك. وعلى حد علمي، لم يكونوا يريدون عبور المحيط الأطلسي في منطاد أو تسلق جبل إيفرست. وكانوا يعيشون اللحظة يوماً بيوم، ولعل هذا ما أعطاهم الطمأنينة وهدوء البال.

عاشت جدتي حياتها كاملة. في سن التاسعة والثمانين أصبحت أكبر مسنة في بريطانيا لتجتاز الامتحان المتقدم للرقصة الأمريكية اللاتينية في قاعة الرقص. وكانت في التسعين من عمرها عندما أصبحت أكبر مسنة تتجح في وضع كرة غولف في حفرة. لم تتوقف أبداً عن التعلم. حين بلغت الخامسة والتسعين من العمر، قرأت كتاب ستيفن هاوكينغ (Stephen Hawking) وعنوانه: تاريخ وجيز من الزمن (A Brief History of Time)، وهو ما يمكن أن يجعلها واحدة من قلة من الناس قرؤوا الكتاب من الغلاف إلى الغلاف. وقبل مدة قصيرة من وفاتها في سن التاسعة والتسعين، ذهبت في رحلة سياحية بحرية حول العالم. وكانت تضحك عندما تخلفت في جامايكا ولم تكن ترتدي سوى لباس السياحة. وكان موقفها هو أنه ليس للمرء سوى متعة واحدة في الحياة، لذلك اغتتم أقصى ما يمكنك منها.

لا يزال والداي حيين وهما في الثمانين من عمرهما. ومثلما فعلت جدتي، لا يزالان يسافران جواً من طائرة لأخرى حول العالم. كانا هناك في بداية ونهاية جميع مغامراتي، يشجعانني، حتى إنهما ذهبا للبحث عني عندما تهت أنا وبيير في الشمال المتجمد بعد أن هبط منطادنا في عاصفة جليدية في كندا. يذكرني مثلها بأن أستمتع بالحياة.

في سنة 1999، اشترينا محمية لصيد الحيوانات في جنوب أفريقيا وبنينا منزلاً جميلاً، حيث نقضي الوقت معاً كعائلة. في الواقع، أدرك إدراكاً تاماً قيمة قضاء الوقت معهما، ولا أخصص لنفسي سوى خمس عشرة دقيقة من الوقت للعمل في اليوم حين نكون معاً. لا أستخدم أدوات حديثة مثل البريد الإلكتروني أو الهواتف الجوال، ولكن في أفريقيا تعلمت استخدام الهاتف للاتصال عن طريق الأقمار الصناعية لأبقى على اتصال بالمكتب، الكثير من المديرين الذين يمضون اليوم بأكمله في مكاتبهم هم في حيرة ويسألون: «كيف يمكنك فعل كل ذلك خلال خمس عشرة دقيقة فقط؟» أقول: «الأمر سهل. أدخل في حسابك كل ثانية! هذا صحيح في حياتي العملية وحياتي الشخصية».

أستطيع قول ذلك الآن لأنني أكبر سنأ وربما أكثر حكمة. لم يكن هكذا حالي دائماً. زوجي الأولى «كريستن» كانت تغضب كثيراً لأنني كنت أتحدث دائماً على الهاتف، قالت: إنني أمضيت حياتي في العمل ولم أرسم خطأ فاصلاً بين العمل والمنزل. كانت محقة. وكان جزء من المشكلة هو أنني كنت أدير أعمالتي من المنزل ولم يكن باستطاعتي مقاومة رفع سماعة الهاتف عندما كان يرن، وكان هذا ما يفعله، دون توقف. تمنيت لو كان بإمكانني جعله يكتفي بالرنين ولكنني لم أكن أعرف أبداً متى كانت المكالمات ستسفر عن صفقة جيدة.

حتى اليوم، عندما أكون مسترخياً، لا أتوقف أبداً عن التفكير، ودماعي يعمل طوال الوقت الذي أكون فيه مستيقظاً وأنا أنتج أفكاراً بغزارة. ولكون فيرجن شركة على نطاق عالمي، أجد أنني بحاجة إلى أن أظل مستيقظاً معظم الوقت. وإن أحد الأشياء التي أجيدها هو أن آخذ سنة من النوم،

لمدة ساعة أو ساعتين كل مرة. من بين جميع المهارات التي تعلمتها، كانت تلك العادة حيوية بالنسبة لي. في حافلة بين هونغ كونغ والصين، مثلاً عندما لا يحدث الكثير، أستيظ مننعشاً مستعداً للاستمرار ساعات طويلة. إنها أيضاً طريقة جيدة جداً للتوقف عن التفكير. كان ونستون تشرشل ومارغريت تاتشر بارعين في أخذ سنة من النوم وأنا أستخدم مَثلهما في حياتي.

كان لدى الرسام الإسباني سلفادور دالي طريقة فريدة لتذوق اللحظة. حين كان يسأم من الحياة، كان يسير في حديقته على قمة سفح، وكان يلتقط حبة دراق رائعة، دافئة بسبب الشمس، ويمسكها بيده ليتأمل قشرتها الذهبية. وكان يشمها والعطر الدافئ يملأ حواسه. بعدئذ كان يقضم قطعة واحدة منها وكان فمه يمتلئ بالعصير الحلو المذاق ويتذوقها ببطء. ومن ثم كان يبصق كل ما داخل فمه ويرمي حبة الدراق في البحر في الأسفل. كان يقول: إنها لحظة رائعة، كان يكسب منها أكثر مما كسبه من أكل سلة من الدراق.

على نحو ما، فإن الندم أشبه باشتهاء حبة الدراق التي رميتها. لقد ولت ولكن الندم يملؤك وتتمنى لو أنك لم ترمها. أنت تريد إعادتها. أعتقد أن الشيء الذي يساعد على اغتنام اللحظة هو ألا تتدم إذ إن الندم يثقلك بالهم والحزن وهو بأسرك في الماضي بينما ينبغي لك المضي قدماً.

من الصعب أن تخسر صفقة أعمال، ولكن الأصعب من ذلك هو المعاناة من الذنب، جميعنا يفعل أشياء نود لو أننا لم نفعها. تبدو أحياناً مثل أخطاء جسيمة، ولكن فيما بعد عندما نتأملها، يتبين لنا أنها بسيطة.

إن الندم الذي يؤدي إلى شعور بالذنب يمكن أن يؤدي بك إلى ليالٍ مؤرقة بلا نوم. ولكن أعتقد أنه يجب أن تلقي الماضي وراء ظهرك؛ إذ لا يمكنك أن تغيره. لذلك، حتى وإن فعلت أشياء خاطئة أحياناً، فلا يجدي الندم وينبغي لك المضي قدماً.

أحد الأمثلة على هذه الحالة هو عندما ذهبت أنا وكريستن في إجازة إلى المكسيك، فقد اختارت مكاناً خالياً من الهواتف، ولم يكن بوسع أي كان الاتصال بي. وقبل يومين من موعد سفرنا، حاولت استئجار زورق من أجل صيد الأسماك في عمق البحر. طلبت من أحد الصيادين أخذنا في اليوم التالي، رفض قائلاً: إن ثمة عاصفة محتملة آتية.

اعتقدت أنه يتمتع من أجل الحصول على مزيد من المال. كنت حريصاً على الذهاب وقلت له: إنني سأدفع لك ضعف المبلغ. قال سائحان إضافيان من الحانة: إنهما سيذهبان أيضاً ودفعاً له ضعف المبلغ. كنا نقضي يوماً رياضياً مثيراً عندما لاحظت أن الجو بدأ يكتهر. واشتدت الرياح وأصبح الجو بارداً وأخذ المطر يهطل. شغلوا المحرك للعودة إلى مكان إقامتهم ولكن الدفة أبت أن تدور، وبالتالي لم يكن بالإمكان إدارتها، وأخذ القارب يلف ويدور. اشتدت العاصفة وازداد البحر هيجاناً. وغطتنا أمواج عاتية. وأصيب الناس بدوار البحر، وكان الزورق يتلقى ضربات عنيفة. كنت متأكداً أن الزورق كان على وشك أن ينفلق ويفرق.

بعد ساعة، يبدو أن أسوأ ما في العاصفة قد ولى وحل الهدوء ولاح نور غريب. في الواقع، كنا في قلب العاصفة. من على بعد، تمكنت من رؤية خط أسود صلب يدنو عبر الأمواج. كان ذلك جدار العاصفة البعيد، وبدا

مريعاً. ظننت أننا سنموت جميعاً عندما يرتطم بنا. كانت كريستن سباحة قوية وقالت: إن علينا السباحة إلى الشاطئ على بعد ميلين، وأن نحاول أن نهزم العاصفة. قال الجميع: إننا مجانين، ولكن الصياد أعطانا لوحاً خشبياً للتمسك به وقمنا في البحر. وانتقل خوفي من الفرق إلى خوفي من أن تلتهمنا أسماك القرش. وقد انجرقتنا بعيداً عن الشاطئ. وبعد ساعتين، كنا شبه متجمدين، وأخذنا نشق طريقنا عبر الأمواج المتكسرة ومن هناك إلى الشاطئ. وعلى نحو ما، شققنا طريقنا عبر مستنقعات من المنغروف وعدنا إلى القرية لطلب العون. وجدنا زورقاً كبيراً كي يذهب وينقذ زورق الصيد، ولكن اصطدنا بعاصفة أكبر ألقنا بنا ثانية إلى الشاطئ. وعندما هدأت العاصفة، ظلوا يبحثون لمدة يومين ولكنهم لم يعثروا على أي شيء.

كان بإمكانني أن أحاول العيش مع الذئب. وبدلاً من ذلك، على الرغم من أن الأمر كان مأساوياً، أدركت أن علي أن أطبق المنطق عليه. قلت لنفسي: إن الصيادين أخذوا المال بما يناقض أفضل حكمهم، ولكنهم لم يكونوا مضطرين لذلك. كانت المشكلة تكمن في حالة الزورق، ولم يكن ذلك خطئني. في حال غرق سفينة تؤدي إلى موت أشخاص، ليس الخطأ خطأ الركاب وإنما هو خطأ القبطان أو المالكين. برزت قصة الزورق المفقود حين نشرت كتابي بعد سنوات. أرسلت صحيفة ديلي ميرور (Daily Mirror) مراسلاً إلى المكسيك لمعرفة ما قد حدث. ومما أثلج صدري أنهم وجدوا الزورق والطاقم أحياء وبحالة جيدة، فقد جرفهم المد والرياح مسافة أميال عديدة باتجاه الساحل. واستغرق إصلاح قاربهم بعض الوقت ولم يكن يوجد جهاز مذياع أو هواتف يمكنهم من الاتصال. وبعد أن غادرنا

إلى موطننا، أبحروا بأمان إلى المرفأ. لم أكن أعرف أي شيء من هذا، وكان من الممكن أن أكون أمضيت سنوات وأنا أعيش في حالة من وخز الضمير بلا مبرر لو استسلمت لنفسي.

يمكن للعيش في المستقبل دائماً أن يؤخرنا تماماً كما يؤخرنا النظر إلى الخلف دائماً. ينظر العديد من الناس دائماً إلى الأمام ولكنهم لا يبدون قانعين أبداً، وبيحثون عن إنجازات سريعة مثل ربح اليانصيب. أعلم أن الأهداف مهمة وأن المال مهم. ولكن خلاصة القول هي أن المال مجرد وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في حد ذاته. وإن ما يجري الآن هو تماماً بأهمية ما تخطط له للمستقبل. وهكذا، على الرغم من أن يومياتي ملأى لأشهر قادمة، فقد تعلمت أن أعيش اللحظة التي أنا فيها.